

[٩] الجزيرة العربية

مقدمة

يدير بترول الجزيرة العربية محركاتنا، ويدفئ منازلنا، ويشكل الإسلام الذي ولد في الجزيرة العربية المترامية الأطراف، عاملاً فائق الأهمية في سياستنا الوطنية والدولية، ويمكن أن نعد العروبة التي تدين باسمها للجزيرة العربية مصدراً لعدد كبير من همومنا ومشكلاتنا. ومع ذلك فإننا ما زلنا بعيدين عن شؤون الجزيرة العربية، كأنها لا تخصنا في شيء. لقد انتهى بي الأمر من فرط محاولتي توثيق معلوماتي عن الجزيرة العربية إلى تأليف هذا الكتاب. لاحظت منذ عدد من السنين أن التلفظ باسم «الجزيرة العربية» يستدعي حتماً كلمة «بترول». ويضاف إلى ذلك غالباً صورة البدوي الخالص، رحالة الرمال الذي لا يتعب، أو المحارب الذي لا يشق له غبار، ذي العينين السود. ولكن الجزيرة العربية ليست ذلك فقط.

تشغل الجزيرة العربية، بعيداً عن النظرة القصصية المرتبطة بهذا الفضاء الشاسع، وبهذه المشاهد الصحراوية، وبأولئك السكان الخياليين، ملايين الكيلومترات المربعة، وملايين الكائنات البشرية، من أصحاب الحضارات العظيمة، يصطرع فيها الإنسان مع أقسى أشكال الطبيعة. إن هذا الموئل الكبير للبداوة، الذي مزقته الطرقات وأنابيب البترول يتحول عن مصيره الذي كان له في الماضي. أصيب البدو الرحل بعدوى تشنجات «الحضارة»، التي تهدم في بضع سنوات هياكل حياة، وطرق عيش ترجع إلى آلاف السنين. إن إحدى أكثر الظواهر المحزنة في عصرنا هي ذلك الزوال المتدرج والسريع للبداوة الحقة، القادمة بغموض من أعماق الأزمنة، والتي هزمتها الحضارة الصناعية والتقنية في بضع سنين. [١٠] لعلها إحدى ميزات نوعنا وعصرنا أن الإنسان الذي يصبح المستقر يتطلع بعين الحسد إلى بقايا البشر الذين يهيمنون على وجوههم. يحذر، وهو المستقر في مكان واحد، من أولئك الذين ليس لهم ارتباطات مادية، ولا

أملكاً محددة، ولا ملف قياسية إنسانية^(١) anthropométrique، ولا بطاقة هوية، ولا عنوان؛ يستطيع الشرطي أو جابي الضرائب بفضلها إيجادها على الدوام. مع ذلك، مَنْ عَالَم الاجتماع الذي يجهل دقة قواعد الأعراف البدوية الكبرى وصرامتها؟ إنها قوانين غير مكتوبة، ولكنها صارمة جداً. وإن عقوبة من يخرج عنها يصل إلى حد النفي خارج العشيرة، والعيش مع الحيوانات، أو الموت في الصحراء. إن الجزيرة العربية أرض صحراوية في معظمها، ولكن إحدى المناطق التي يكثر فيها السكان «صدرت» موجات من سكانها إلى الشرق الأوسط، وحتى المغرب. إنها العربية السعيدة القديمة، وأاليمن اليوم، بلاد الجبال الخضراء، والشعب المتحضر الذي كانت تحكمه ملكة سبأ. إنها بلاد تكتنفها الأسرار المجهولة.

هنا نجد سكان الجبال المتحفظين، أجدادهم علموا العالم الجبر، ومنافع القهوة، وهم يحوّلون بعزيمة شكل الأرض لكي يستخرجوا منها ما يسد رمقهم.

إن عزلتهم، ونضالهم ضد الغزاة في تاريخهم المضطرب، علماهم الصمت والحذر. إن هؤلاء الذين يصح أن نطلق عليهم «سويسريي» الجزيرة العربية^(٢) لا يتوانون عن الإمساك ببندقيتهم القديمة ليحطموا بها رأس الأجنبي الذي يحشر أنفه في شؤونهم. ولا يوازي ريبتهم إلا إحساسهم بواجب الضيافة، ولا يداني قسوتهم إلا تجردهم. لقد نسيهم التاريخ، وما زالوا كذلك، كأنهم ليسوا من أبناء هذا العصر. ليس من سمات هذا العصر أن يظل على الأرض مكان ينام فيه البشر غير المتحضرين غير خائفين على بتولهم غير المستخدم. إن هذا القرن يتسلى بخفة أسوار مملكة اليمن القديمة الغافية في أحضان الجبال؛ ليحمل إليها مع الكأبة، دولارات، وسيارات، وأطباء، والخبز اليومي أيضاً.

(١) علم أقيسة الجنس البشري، وبخاصة في تحقيق شخصية المجرمين (المترجم).

(٢) شبه أمين الريحاني في كتابه ملوك العرب، ١: ٢٣٩-٢٤٠ جبال اليمن بجبال سويسرا فقال: «إن جبال

اليمن كجبال سويسرا في وهادها، وأكبر منها في اتساعها، ولكنها غير مأهولة، وتقل فيها الأشجار والمياه» (المترجم).

إن هناك في الجزيرة العربية من أدناها إلى أقصاها رجالاً تعجبوا عندما عرفوا متعجبين أن من حق الإنسان ألا يموت جوعاً، ولكن هذا يفترض الاستعباد. قياس أقرن^(١)!

إذاً، لقد تغير كل شيء، وكل شيء يتغير في الجزيرة العربية، بسرعة متزايدة حتى إننا لا نملك الوقت لإدراك ما يحصل.

ويطلق هاري سنت جون فيلبي [١١] أحد كبار المختصين في شؤون الجزيرة العربية التنهدات قائلاً: «لقد تغيرت العربية الصحراوية خلال الأربعين سنة الأخيرة التي عرفت فيها، بل خلال العشر أو الخمس عشرة سنة الأخيرة».

لذلك وددت أن أكتب كتاباً يكون صورة لهذه العربية الجديدة، وقد كان يمكن لهذا الكتاب أن يحمل هذا العنوان «العربية الجديدة»، لو لم يكن لدي شعور بأن هذه «الجلدة» عابرة، وأنها ليست إلا موجة من الأمواج التي تصخب في بحر «الخلود».

لقد كان عليّ التزام الحذر، وأنا أحاول القبض على هذه اللحظة القصيرة من التاريخ، التي لم تحظ إلا بقليل من الاعتبار في الكون، والتي تكتسب أهمية كبرى لأننا نعيشها، كان عليّ أن أحذر من خطرين: خطر الانزلاق وراء الغريب السهل، وخطر إيراد أحداث مشكوك فيها. ولم يكن من السهل اتخاذ موقف وسط بين حرارة التخيل الروائي، وبرودة السرد الجاف للأحداث؛ ولا أزعم أنني استطعت تحقيق ذلك؛ ولكنني حاولت.

إن ضجيج الأحداث المعاصرة غير مناسب للقيام بعمل هادئ ومفيد. لقد أردت تقديم كتاب يحمل ذوق العصر ما أمكنني ذلك، دون أن أستخدم معلومات مشكوك فيها.

(١) ترجمنا Dilemme بـ قياس أقرن؛ والمقصود به قياس ذو حدين يُكره الخصم على اختيار واحد من

بديلين، كلاهما في غير مصلحته (المترجم).

وعلى الرغم من البحوث الطويلة التي قمت بها، ومن مقابلة أشباه معلوماتي بنظائرها، فإنه سيكون من التبجح المفرط أن أزعّم أن هذا الكتاب خالٍ من النواقص والأخطاء. ولكنني مع ذلك آمل أن يكون في مستوى المساعدات العظيمة التي توافرت له.

أود أن أختّم هذه المقدمة بالتعبير عن شكري لكل أولئك الذين ساعدوني، وزودوني بالمعلومات منذ سنوات عديدة، وأخص أولئك الذين شجعوني منذ بدأت أبحاثي حول بلدان الشرق الأوسط. وإن ما يسعدني أنهم كثر، ولن يكون بالإمكان ذكرهم جميعاً؛ لذلك لن أسمى أحداً منهم. بل أكتفي بتسجيل اعترافي بالفضل لمركز الدراسات العليا للإدارة الإسلامية، ولمركز دراسات السياسة الخارجية، وللمعهد الملكي للشؤون الدولية، وأخص بالشكر العظيم مكاتب خدمات التوثيق الفرنسي الذين كانوا جميعاً رائعين كل الروعة.

كنت، وأنا أكتب هذا الكتاب، أفكر غالباً بصديقي بـ B. الحاكم المدني في الجزائر، لأن أقل ما أدين له به هو أن هذا الكتاب، لولا مساعدته، لم يكن له على الأرجح [١٢] أن يرى النور. ويسرني أن أهدي عملي، عبّر ذلك الرجل، إلى كل أولئك الذين يعتقدون بمستقبل أفضل للعلاقات الفرنسية-الإسلامية، أفعل ذلك، وأنا أدعو ألا يهدم السياسيون ما يبنيه المفكرون يوماً بعد يوم.

جان-جاك بيريبى

محاضر في مركز الدراسات العليا

في الإدارة الإسلامية